

ملاحم العلاج الشعبي في منطقة حوض تافنة في الجزائر

أ. د. علي عمار

2014-04-22

يتضمن التراث الأنثروبولوجي رصيذاً كبيراً من المصطلحات الدالة على الطبابة الشعبية المتنوعة. ويظهر هذا التعدد والتنوع في المصطلح الدال على ذات المعالج حيناً، وفي التخصصات العلاجية الشعبية حيناً آخر. فالشخص المعالج بالأعشاب والنباتات مثلاً يطلق عليه اسم (العشاب) أو (الطار)، ومعالج الكسور والفلتات المفصلية اسم (الجبار)، والمعالج بالآيات القرآنية اسم (الطالب) أو (الفقيه). وهكذا تزداد المصطلحات المستخدمة تعديداً وتقدماً داخل الثقافة الشعبية الجزائرية. فما بنا بالثقافات المغايرة الأخرى. فالشواهد الاثنوغرافية تؤكد على أن المعالجين الشعبيين غالباً لا يقتصرون على حرفة العلاج الشعبي فحسب، وإنما هم يمارسون حرف أخرى، علاوة على شغلهم أوضاعاً اجتماعية مغايرة. ولعل صورة الفلاح في المجتمع الجزائري أدق مثال على ذلك، حيث نجده يمارس مهنة الفلاحة ونفس الوقت يمارس مهنة الطبابة مثل: الختان (الطهارة)، وتجبير الكسور والكي والحجامة.

ومن ناحية أخرى لاحظنا من خلال الدراسة الميدانية الاجتماعية الأولية التي قمنا بها في بعض المناطق (حوض تافنة) على أن كثرة التخصصات العلاجية الشعبية في تزايد، وقد حاولنا حصرها في الممارسات التالية: العلاج بالأعشاب والنباتات الطبية؛ العلاج بالكي؛ العلاج بالحجامة؛ العلاج بالوصفات العلاجية الشعبية؛ المعالجة بالتجبير (الجبار)؛ معالجة اللوزتان (الجياف)؛ العلاج بالقرآن الكريم. والملاحظ أن بعض هؤلاء المعالجين الشعبيين يقدمون خدماتهم العلاجية مقابل مبلغ نقدي غالباً ما يكون رمزي أو عيني. في حين يرفض البعض الآخر أخذ الأجرة، على أن يقدموا خدماتهم للمحتاجين باعتبار أن هذه الخدمة صدقة علم أو محبة له⁽²⁾. ومن زاوية أخرى لاحظنا تعدد مصادر الخبرة العلاجية لهؤلاء المعالجين الشعبيين ما بين الوراثة والاكتساب، والممارسة الواقعية (التجريب) واستمداد الخبرة والمعرفة من المصادر المكتوبة مثل الكتب والمخطوطات وغيرها.

ويتفاوت المعالجون الشعبيون فيما بينهم في حجم الشهرة التي حققوها ويحققونها. فبعضهم تتجاوز شهرته حدود المنطقة المحلية التي يعيش فيها على مستوى المجتمع الواحد وأحياناً تتجاوز الشهرة حدود المجتمع الكبير إلى غيره من المجتمعات المجاورة. كذلك قد يعتمد بعضهم على مساعدين له في الممارسة مثل (المعالج بالحجامة)، في حين يكتفي البعض بشخصه مثل (المعالج بالأعشاب والوصفات الشعبية). والواقع أن قضايا الصحة والمرض أضحت تتجاوز النظرة الطبية أو البيولوجية المحدودة، لتبلغ تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية المتنوعة حول الأسباب والوقاية والنتائج. والمجتمع الجزائري مشبع بتراث علاجي شعبي لا مجال لحصره يغطي معظم مجالات الصحة والمرض، وقايةً وعلاجاً.

إن ممارسة العلاج الشعبي يتطلب خبرة ومهارة قد تكون مستمدة عن طريق الوراثة من أحد الأقارب، أو مكتسبة عن طريق مواصلة القراءة والتحصيل الذاتي. وبعبارة أخرى فإن العلاج الشعبي يتضمن أنماطاً عديدة من التخصصات والمعالجات والأساليب والأدوات. ولذلك فقد يشتهر معالج ما في نمط علاجي دون غيره، وعلى هذا فإن الثقافات المختلفة عادة ما تحوي ما يطلق عليه بالتخصص العلاجي. فهناك معالج متخصص في العلاج بالكي، وآخر في الحجامة وثالث في تجبير العظام والفلاتات المفصليّة، وكلها تخصصات تتطلب الخبرة والتجربة الطويلة. إضافة إلى أن هناك علاجات قائمة على الأساس العقلي والتحصيلي مثل العلاج بالأعشاب والنباتات الطبية، إلى علاجات أخرى تعتمد على تسخير الكائنات فوق الطبيعية مثل علاج السحر والصرع.

وفي ضوء هذا الزخم المعقد يتزايد عدد المعالجين بالأعشاب ومجري العظام والفلاتات المفصليّة، والمعالجون بالحجامة، والمعالجون بالكي والمعالجون بالسحر في المجتمع الجزائري. والواقع أن مفاهيم الصحة والمرض والوقاية والعلاج تعدّ نتاجاً للثقافة السائدة، ولذلك فهي تفسر على أساس المعتقدات الشعبية حول جسم الإنسان وعلاقته بالعالم الطبيعي الذي يعيشه ويدركه، والعالم فوق الطبيعة الذي يعجز عن ادراكه، وما يحويه من الكائنات المتنوعة، ومنها الملائكة والجن. ولا يخرج تفسير المعالج الشعبي عن هذه التصورات، وكذلك تفسير الأفراد لأسباب المرض.

ولعلنا نلاحظ في ضوء نظرية العلامات (Signatures) ونظرية التوازن (Equilibre) ⁽³⁾ في الطب الشعبي يفسر المعالجون - والمرضى - المرض ويشخصون أسبابه. ولذلك نجد المعالج بالكي يرد "لا يفلح الحديد إلا بالحديد" بحيث يفسر الأمراض التي يعالجها بالكي بأنها ناتجة عن عروق لا يتمكن الطب الحديث من علاجها ولا تجدي الأدوية الحديثة معها نفعاً، وقد يفلح الكي في إماتة العروق فيموت معها المرض. ولذلك يقوم بكيها بالنار سبع مرات أحياناً

حتى يتخلص منها المريض نهائياً.

• دراسة ميدانية علمية شقيقة ندعوكم للاطلاع عليها في ملف PDF أعلى الصفحة

البريد الإلكتروني للكاتب: homme_tlm13@hotmail.fr